التجديد بين الشعر العباسي والشعر المعاصر

بقلم الدكتور علي الزبيدي

ما يزال الخلاف قائما بين انصار الشعر الحر وانصار الشعر التقليدي او العمودي . ومع ان الشعر الحر قد خرج من مرحلة التخبط والحيرة ، ووجد كثيرا من الضوابط العروضية واللوازم الموسيقية ، ونال الحرية الفنية الواسعة التي جعلته يتصرف بالتفعيلات والاوتاد والاسباب ، وانتزع اعطابه من النقاد اعترافا بان شعرهم من الشعر الحق ، لا من سجع الكهان ، مع هذا كله ما يزال الخلاف يتفجر بين الحين والاخر ، يثيره ما ينشر احيانا من رقي وتعاويذ وطلاسم تحسب نفسها من الشعر الجديد او ما يظهر من مقالات (نقدية) تزدحم بالالغاز والمعميات، معاودة الهجوم على الشعر التقليدي ، مكررة ما قراه وسمعه الناس طيلة نصف قرن ، منذ ايام جماعة الديوان وابولو . وما يطرق شيء من هذا اسماع المحافظين والمعجبين بالشعر العمودي حتى يردوا الصاع صاعين ، وينتهزوا الفرصة لشن هجمات مقابلة تستهدف ابعاد الناس عنه او ابعاده عنهم ، وطرد هذا الشعر الجديد ، جيده ورديئه ، من جنة الشعر او جحيمه ! ولعل اول ما يرجوه القارىء العربي ، ان يرحمه المتخاصمون ، فلا يكرروا اليوم ما قيل أمس عشرات بل مئات المرات ، وان لا يهبطوا بمستوى الخلاف المثمر بين القديم والجديد الى الابتذال والاسفاف ، وان لا يتطرف الطرفان ، وان يستفيدوا من قول لابن قتيبة أطلقه قبل اكثر من اثني عشر قرنا : « ولا نظرت الى المتقدم منهم (يعني الشعراء) بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لحدوثه ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين .. فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل من زمانه او انه راى قائله الخ... » (١) وكان قول ابن قتيبة هذا صدى للخلاف بين القديم والجديد في عصره وللمعركة الفنية بين الخارجين على عمود الشعر العربي وعلى رأسهم ابوتمام، وانصار عمود الشعر القديم ، على ما يوجد من اختلاف بين مدلول كلمة عمود الشعر في القرن الثالث وكلمتي الشعر العمودي والشعر الحر في عصرنا هذا . ومايلاحظ من وجوه اختلاف اخرى او تشابه تجعل حركة التجديد في العصر العباسي وثورة التجديد في العصر الحديث اكبر حدثين في تاريخ الشعر العربي هما على كثرة ما في حياته المديدة من احداث .

ولعل هذا ما دفع صديقي الدكتور سهيل ادريس الى الاهتمام بعقد موازنة بين هاتين الثورتين التجديديتين. والحق ان الفكرة قد اعجبتني لاسباب عديدة منها التشاؤم والمقاومة العنيفة التي يبديها المحافظون والمتعصبون بحجة المحافظة على التراث وترك كل تجديد بما سموه الغزو الفكري الاجنبي ، او التخوف المبالغ فيه من تبليل القيم والمقاييس والخبرات الفنية والادبية وافتراض ضياع ادبائنا وشعرائنا في تيه فني وفكري طويل الامد . ومنها بل من اهمها حرص السلفيين على ممتلكاتهم الثقافية والادبية الموروثة وتطيرهم من تزايد اهتمام الجمهور بالشعر الحر على الاخص . ونحن اذ نقارن بين حركة التجديد في الشعر العباسي والشعر الحديث في مقال عاجل كهذا لا نريد الانحياز لجهة ولا تفصيل القول في خصائص الحركتين ، بل لنطمئن الخائفين والمتوجسين ، ونؤكد لهم ان الثورة التجديدية المعاصرة لن تضر ادبنا ولن تضيع تراثنا الشعري ولن تشوه فنونه واغراضه بل سيزداد شعرنا رونقا وبهاء ، بعد أن يذهب الزبد جفاء .

والصراع بين المحافظين والمجددين قديم ، وقد كان ظهور الاسلام اول من أثار خلافا بين شعراء المشركين وشعراء المسلمين ، تناول الغاية من قول الشعر والمعاني التي تضل طرقها فيه وان لم يمس هذا الخلاف اطاراته الفنية ولم يظهر لغته الشعرية الا بقدر ضئيل . وظهرت معالم الجديد بشكل اوضح في العصر الاموي كما بين الباحثون (١) ولكن الصراع بين القديم والجديد بلغ أشده في القرن الثاني للهجرة . وقد اعتبر الباحثون ابا نواس زعيم الثورة التجديدية رغم اختلافهم في تحديد ابعاد هذه الثورة وسعتها ومدى تأثيرها في فن الشعر العربي بصورة عامة . فطه حسين الذي تناول تطور الشعر العباسي في ألفاظه ومعانيه يقرر ضآلة التطور والتجديد فيه بقوله : هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين ، وهذا كل ما انتجه الخلاف ، وهو ليس بالشيء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم

١ ــ انظر مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

١ ــ انظر « حديث الادب » لطه حسين و « التطور والتجديد في الشعر الاموي » لشوقي ضيف .

يتغير في لفظه ومعناه الا قليلا جدا .. الخ .. (١) . وقد تبنى رأي طه حسين هذا كثيرون في طليعتهم شوقي ضيف ، (٢) والمرحوم احمد امين الذي عزا هذه الضآلة المزعومة في تطور الشعر وتجديده الى ضعف تأثير الثقافات الاجنبية في الشعر العباسي قال : « فلئن كانت الثقافات الاجنبية في العلوم واضحة الاثر ، فأثرها في الشعر خفيف ، ولو كان شديدا قويا لادخلوا على بحور الشعر بحورا فارسية ويونانية ، ولتحرروا احيانا من القافية ، ولادخلوا ضرب الشعر القصصي والتمثيل ، ولرسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة .. ولحدثت ثورة في الادب والشعر فنقلته نقلة جديدة كماحدث في العلوم. نعم ، حدث تغيير في دخول بعض الفنون الشعرية واصطباغها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغيير طفيف لا يكاد يرى بالمجهر ! » (٣) .

ولن نناقش هذه الاراء هنا بل نكتفي بالقول بأن مشاكل التاريخ الادبي لا تبحث بهذا الاسلوب وهذا التعميم ، فليس في التاريخ ليت ولعل ولو ! وليس مقياس التطور اشتراط وجود الشعر التمثيلي والقصصي ، فأسلافنا لم يطلعوا على هذين الفنين الشعريين ولم يعرفوهما اذ كانا مطمورين في عصرهم ولم تعرف تمثيليات اليونان الا بعد قرون حتى ان مترجمي العرب الذين عربوا كتاب « فن الشعر » لارسطو لم يفهموا مدلول كلمتي تراجيديا وكوميديا (٤) . وليس معيار التطور بعد هذا ملازمة التجديد الادبي للتقدم العلمي . اما الشعر الفارسي فلم يكن له كيان فني ولغوي واضح يومذاك ، ولم يكن بمستوى التاريخ والحكم والامثال الفارسية التي تركت تأثيرا واضحا في الادب العربي . اضف الى ذلك اننا لا نستطيع ان نحمل التطور اكثر مما تحتمل ظروف العصر الذي يحدث فيه ولا يصح ان نطبق معايير عصرنا على الماضي البعيد . ولكن اراء طه حسين ومن تأثروا به ذاعت وتبناها الكثيرون لا لكونها قاطعة او صحيحة من الناحية التاريخية ، بل لانها كانت تعبيرا قويا عن رغبة المعاصرين لدفع شعرنا الحديث نحو ثورة تجديدية تحقق متطلبات ومطامح وحاجات النهضة العربية الجديدة .

لقد لاحظ النقاد القدماء بما في ذلك المتعصبون للشعر القديم ما في الشعر العباسي او شعر المولدين ، كما سموه ، من خصائص جديدة ومذاهب مستحدثة ابتعدت بكثير من موضوعاته والفاظه ومعانيه عن النماذج الجاهلية والاسلامية الاولى . والحق ان حركة التجديد أظهرت بوادرها القوية الاولى في شعر بشار بن برد وبعض معاصريه من شعراء البصرة والكوفة . ولهذا كاد يجمع النقاد على ان بشار زعيم المولدين ورأس المحدثين وكبيرهم واستاذهم ..الخ ولم يسبغوا على ابي نواس اوصافا كهذه رغم اعترافهم بتقدمه وتفوقه على معاصريه . ولم يمر النقاد والادباء مرورا عابرا بكلمة المولدين او المحدثين بل فسروا مدلولها وعددوا الخصائص الفنية التي تنطوي عليها ، وبهذا رسموا الخطوط العريضة التي كشفت ابعاد التجديد في الشعر المولد واوضحت وجوه الاختلاف بينه وبين الشعر القديم . فالمولد هو المحدث من كل شيء كما جاء في لسان العرب (١) « ويسمى الكلام مولدا إذا استحدثوه ولم يكن من كلامهم فيما مضى » (٢) وكان السائد عند اهل اللغة والادب ان المولدين قد توسعوا في الالفاظ ولكن توسعهم في المعاني كان اظهر واكثر ، حتى قال ابن جنى « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ » .. ويؤيد صاحب العمدة هذا الكلام الذي أورده لابن جنى ويؤكده : لان المعاني اتسعت في الناس لاتساع الناس في الدنيا الخ(٣) .. وكان اختلاط العرب بالاعاجم وامتزاج الثقافات من الاسباب التي أدت الى تطوير الشعر المولد في الالفاظ والمعاني معا كما بين احمد امين نفسه في ضحى الاسلام (٤) وقد ادرك عبد القاهر الجرجاني ما للذوق من أثر في هذا كله كما لم يفته ما يسميه نقادنا المعاصرون بالتجربة ، لعلاقة العفوية بين الشكل والمضمون او اللفظ والمعنى ، فأشار الى تطور اللفظ بتطور المعنى وبالعكس. وهذا ما يبرر به مجددو الشعر الحديث دعوتهم الى توسيع لغة الشعر والتغاضي عن الاخطاء اللغوية والصرفية البسيطة التي يقعون فيها ، كما فعل عبد الرحمن شكري وميخائيل نعيمة وجبران وعريضة .

وقد ذكرت الاستاذة نازك الملائكة أهمية هذا العامل في تجديد الشعر المعاصر ، ولكنها أضافت ان توسع المضمون بتوسع الفكر والذوق قد استلزم اباحة التصرف بالعروض ، وهذا ما دفعها هي وزملاءها الى ابتداع التصرف بالتفعيلات العروضية بالصورة التي عرفناها في الشعر الحر (٥) . والواقع ان القدماء لم يفتهم ادراك هذا ايضا وان لم يتحدثوا فيه بصراحة المعاصرين . فقد حاول ابو العتاهية اضافة وزنين الى العروض . وتصرف الشعر الشعبي القديم في الاوزان ، فظهرت اوزان الموالیا والدوبيت وكان ما كان ، وغيرها ، كما ظهر البند في الشعر العراقي المتأخر ، وان لم يعترف بها النقاد الرسميون . وظهر الموشح للدوافع نفسها ، وعندي ان هناك ظاهرة اوسع من هذا واكثر اهمية واقرب الى ما حدث في

١ ــ حديث الاربعاء ٢ ــ ٨

٢ ــ انظر مقدمة كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

٣ ــ ضحى الاسلام ١ / ٣٧٨

٤ ــ انظر كتاب « فن الشعر » لارسطو للدكتور عبد الرحمن بدوي وتعليقاته عليه

١ ــ لسان العرب ٤ / ٤٨٥

٢ ــ تاج العروس ٥ / ٥٤٣

٣ ــ العمدة ٢ / ٢٣٦

٤ ــ ضحى الاسلام ١ / ١٦

٥ ــ انظر « قضايا الشعر المعاصر »

الشعر الحديث وهي اتجاه الشعر العباسي ولا سيما العتابي منه الى الاوزان القصيره والمجزوءه . وهذا يدل على ان الشعراء قد وجدوا انفسهم مضطرين الى ذلك بحكم المعاناه والممارسه والتكيف للتجارب الجديده والانصياع للضغط الحضاري المتزايد كالذي عليه حاله الشعراء المعاصرين . وكان تطور شعر الرجز وظهور اتجاهات جديده فيه نتيجه للسبب ذاته . فقد وجد الشعراء ان الارجوزه تصلح للشعر التعليمي كما وجدوا انها خير ما يصلح للموضوعات التي تكثر فيها الحاجه الى بسط الافكار والتأملات والحكم والامثال كما فعل ابو العتاهيه في ارجوزته الشهيره « ذات الامثال » ، وكما فعل ابن المعتز في ارجوزته المعروفه التي صور بها ماسي الحياه والسياسه في عصره . وقد كثر النظم بعد ذلك على البحور التي تحتمل طول النفس الشعري كما فعل ابن الرومي وابن سكره الذي قيل انه نظم قصيده من اربعه الاف بيت في زنجيه . ويذكرنا عمله هذا بالشاعر الفرنسي بودلير .

اما في الشعر الحديث فقد ثبت ان الرجز اصلح البحور للشعر التمثيلي ، اما الشعر المرسل فقد فشل في هذا الميدان فقد (اضاع المشيتين) اذ عجز عن التعويض عما تتطلبه المسرحيه من بسط الافكار بشعر موزون .. يجذب الجمهور ببلاغته وموسيقاه وترك النثر الذي يصلح للمسرح اكثر من غيره . وما يقال عن وضع الاوزان في الشعر العباسي والشعر المعاصر يقال ايضا عن تطور الموضوعات في شعر كلا العصرين . اذ كان تطور الموضوعات اول موجه طاغيه في الشعر العباسي ، فكان بشار اول واشهر من مارس التوسع فيها واشار الى ذلك صراحة . ونجح بشار اذ لم يبق غزل او مغنية او نائحة في البصرة الا وراح يترنم بشعره ، كما روى صاحب الاغاني . وسار الشعراء على نهجه حتى اذا جاء ابونواس رفع عقيرته بذلك واحدث ضجة كبيرة تمثلت في حملته الساخرة على المتمسكين بوصف الطلول . وكانت هذه الظاهرة اول ما احس الناس بضرورته في ذلك العصر واول ما فطنوا اليه ايضا وطالبوا به في عصرنا هذا . كما اكثر النقاد القدماء من الاشارة اليها . قال ابن رشيق « وليس بالمحدث من الحاجة الى اوصاف الابل ونعوتها والقفار ومياهها ، وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول وما بالاعراب من اهل البادية لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات » ... الخ (١) .

وعندي ان دور ابي نواس وبعض معاصريه في تطوير الموضوعات كان اوسع واخطر ، فالقضية لم تكن مجرد استجابة لحاجات العصر بتقديم صور من حياة الناس في القرن الثاني وترك القديم للقدماء والصحراء وما فيها للاعراب . اذ يستطيع الشعر المنظوم وفق النماذج القديمة ان يقدم هذه الصور ايضا . فشعر ابي نواس ، وقبله شعر بشار طور شكل الشعر ومضمونه كما نقول اليوم ، اذ تطالعنا في ديوان ابي نواس شخصية جديدة للشعر تختلف عن شخصيات دواوين سابقيه ان صح هذا التعبير . فصور ابي نواس الشعرية في خمرياته تختلط وتمتزج وتتفاعل مع مشاعره واحاسيسه وارائه في الحياة والناس . ولم يخطيء بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور عبد الستار الجواري والدكتور محمد مصطفى هداره (١) عندما قالوا بان شعر ابي نواس يعبر عن ذاتية قوية ، واعتبروا الذاتية من الاتجاهات الجديدة الواضحة في الشعر العباسي مستشهدين بشعر كثير لعدة شعراء . وكان الاتجاه نحو الذاتية القوية وما يزال من ابرز خصائص واتجاهات الشعر العربي المعاصر ابتداء من شعراء الديوان وابولو والرابطه القلميه في نيويورك حتى هذه الساعه . وحل عنت ما يقال حول القصص النواسي الخمري وبكثير الصور فيه . فالذين تحدثوا عن هذا لم يحكموا على شعر ابي نواس بمقاييس النقد الحديثه . فالصوره الشعريه عند ابي نواس ليست مستقله عن انفعاله بالخمره وتهالكه عليها وحبه العميق لها . بل هي ، اعني الصوره ، جزء لا يتجزا من (الشعر) في القصيده الخمريه ، جزء تمتزج فيه (التجربه) بتصوير المرئيات وبالشعور والخيال والانفعال والاهتمام لتكون كلها وحده شاعريه لا انفصام فيها . وطبيعي ان ينعكس مضمون كهذا على (الشكل) ويندمج فيه ايضا فقد استطاع ابو نواس ان يطور لغه الخمر تطويرا عظيما ، فديوانه قاموس للخمره ، بل هو اوسع قاموس لها في اللغه العربيه ! ولكنه قاموس حي ليس فيه جمود القواميس ! فقد جمع فيه كل ما قدم وجد وجرى وشد من اسماء الخمرة وصفاتها وادواتها واحاسيسها . وتصرف بالصفة والموصوف حتى ابتدع مذهبا جديدا في صياغة العبارة الشعرية . وعندي ان هذا سر نجاحه وانبهار معاصريه وغيرهم بشعره ، وسر تأثيره في لغة الشعر وصياغة لفظه ومعناه حتى تغلغل هذا التأثير الى الشعر الصوفي والرمزي ولم تسلم منه اغراض الشعر الاخرى . وكاد ابو العتاهية يفعل مثل هذا في شعر الزهد لو كانت له عبقرية ابي نواس . ومع هذا فقد استطاع هذا الشاعر ان يستفيد من طاقات اللغة العربية ليدخل بالشعر الى عالم التأمل في الحياة والموت . ولكن حركة الزهد كانت تنتظر امتزاج افكار الزهد البسيطة بالفلسفة والتهاب مشاعرها الساذجة واهتماماتها الواقعية الاولى بالسلبية والهروب من الواقع واتصالها بالحب الالهي والوجد والشوق والاستغراق الصوفي ليصوغ شعرا اكثر قوة واصالة من زهديات ابي العتاهية كما ظهر بعد ذلك في شعر التصوف .

ولو نظرنا الى الشعر الحديث لوجدنا فيه الوانا

١ ـ العمدة ٢ / ٢٢٧

١ ـ انظر « شعراء بغداد » للدكتور عبد الستار الجواري و « اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني » لمحمد مصطفى هداره

من التوسع في نواح كهذه ، فالعبارة الشعرية المعاصرة تعتصر طاقات اللغة العربية لتستقي منها الفاظا وتنتزع من نموها وصرفها وعروضها المواد الحية لفن جديد يضطره توسع الموضوعات والافكار والمشاعر والظروف والحاجات المادية والمعنوية الى توسيع صياغته اللفظية والمعنوية . ويزداد هذا التوسع بسرعة البرق ، فقد غدا عالمنا صغيرا جدا تأممت فيه الافكار والمذاهب الفنية على نطاق عالمي . ولم يقتصر الامر على التعقد العائد من الفكر والعيش بل تعداه الى التبدل والتقلب ، بل الكفر بالمقاييس والتمرد على كل شيء . فقد تغيرت اكثر المفاهيم وانقلبت اغلب القيم وزعزع تطور المواصلات والاسلحة والحروب والنظم الاجتماعية والسياسية وشائج الحضارة الانسانية وروابطها المعنوية . وازدحم الوسط الفني لا العربي فقط بل في العالم اجمع بعشرات المذاهب والنظريات ، فاضطر اهل الفنون من شعراء ومصورين وغيرهم الى اعادة النظر في مجموعة القواعد والتقاليد والاساليب الفنية من حين لاخر . وهنا يحسن ان اعود الى الاشارة الى بعض ما أوردته نازك الملائكة في كتابها القيم . والحق ان هذه السيدة ينبوع ثر جدير بالاجلال والاكبار لو مضت في انطلاقاتها الفنية والفكرية دون ان تتأثر بضغط السلفيين المتزايد . لقد اعجبتني جدا اشارتها الى ما في الفن العربي القديم من تمسك مستمر بالتناسق وبتكرار التناسق . أي مايسميه اهل الفن بالتناظر وشرحت تأثير هذا التناظر على الفن عامة بما في ذلك الشعر العربي والعروض على الاخص . ثم ذكرت ان من جملة الدوافع الى ظهور الشعر الحر ابتعاد الفن الحديث ولا سيما فننا العربي عن قاعدة التناظر القديمة . وبينت أن هذا يستدعي ان يعيد الشعراء النظر في اوزان الشعر لتلائم القواعد والاساليب الفنية الجديده . ويا لها من التفاتة فنية صائبة ، لان الشعر اليوم في سائر ارجاء العالم اول ما يتأثر بتطور المذاهب والاساليب الفنية المستحدثة . وفي هذا خير كما فيه شر ، ولكن الشعر العربي لا خوف عليه لرسوخ قواعده وقوة شخصيته . فالشعر العربي الحديث يتطور كما تطور الشعر العربي السابق . وثورة التجديد سواء جاءت في الشعر الحر ام في الشعر العمودي ماضية لتماشي التطور العظيم في الحضارة العربية والحضارة الانسانية . ومعذرة فان هذا المقال سيطول ولهذا اود ان اتعجل بكلمة لاهل الشعر الحر ، وهي ان الشعر لا ينظم للقراءة فقط بل يجب ان يصلح للغناء ، وان عروض الخليل كانت منسجمة كل الانسجام مع الحان الغناء العربي او الاصوات كما سماها الموسيقيون العرب . وكتاب « الاغاني » يضع امامنا الدليل الدامغ . والموسيقى العربية المعاصرة لا تستطيع ان تخرج على قواعد الموسيقى العربية القديمة ، فهي وريثتها الشرعية . والذوق الغنائي العربي المعاصر وان كان يتغير ببطء ، ويجب أن يتغير ويكتسب ما هو مفيد من الموسيقى الغربية ، ولكنه ما يزال مرتبطا بنظام العروض وتناظر تفعيلاته والاشطر ، ولا بد للشعر الحر اذا أراد النجاح ان يشق لنفسه طريقا الى المغنين والموسيقيين وان يرضى اذن الموسيقار والمغني كما يرضى اذان محبي الشعر الذي يقرأ ويسمع .

ولا بد لي من ان اشير ايضا الى ان التجديد في الشعر لا يعني مطلقا النظم على اوزان جديدة ، فكم من شعر سخيف في (تراثنا) القديم ! وكم من شعر جيد في شعر الشباب حتى عند الذين ما يزالون يتخبطون . وعوامل التجديد الظاهرة اذا تشابهت بين حركة قديمة وحركة جديدة فهذا لا يعني ان ثمراتها ستكون متشابهة ، فالشعر المعاصر أغنى من الشعر العباسي في نواح كثيرة . وسيزداد ثراء مع الايام ، والشعر العباسي أغنى من الشعر الجاهلي .

وبعد فان المقارنة او الموازنة بين ثورتي التجديد لا تنتهي في مقال او مقالين ولا يسعها كتاب صغير ولن تشفي الغليل اذا اقتصرت على بعض الاتجاهات والمظاهر في شعر العصرين ، فالشعر كلمة صغيرة ولكنها سحرية تنطوي على عشرات العناصر والموضوعات تحتاج الى مقالات ومقالات ولعلنا عائدون .

بغداد **علي الزبيدي**

صدر حديثا :

اساس البلاغة

تأليف الامام العلامة

جاد الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

طبعة ممتازة محققة

مجلدة بالقماش

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت

الثمن ٢٥ ليرة لبنانية